# الهاتف في زمن الحجر : ثورة على العزلة

## (رؤية سوسيولوجيّة)

**د.مأمون طربيّه (أستاذ جامعيّ)**

عندما تحمل هاتفك الذّكيّ للاتّصال بشخص معين عليك أن تتذكّر وتشكر مخترعه الأميركيّ مارتن كوبر الذي إليه يعود الفضل بظهور الهاتف المحمول عام 1973، وأجرى بواسطته أوّل اتّصال بعد خمسة أعوام من تطوير إنجازه، لكن كوبر ورغم التّقدّم الكبير في صناعة الخليويّ كان يتوقع أن يصبح اختراعه قديمًا خلال عدة عقود، إذ سيقدّر للبشريّة أن تحصل على "رقائق الكترونية" تُزرع في أجساد النّاس، وتتيح لهم الاتّصال بواسطتها بمجرد ذكر اسم الشّخص المطلوب، قد يكون ذلك مدهشًا ولكن لنفكّر ما حدث مع الخليويّ قبل عقود عندما اعتقد النّاس بأنّه أمره غيرممكن التنفيذ، ولا أحد سيقدر على استخدام هذه الوسيلة بينما لدينا الآن الملايين والملايين من المستخدمين في أرجاء العالم؛ التّغيير الكبير الذي يحصل لن يكون تكنولوجيًّا بل ما سيقوم به النّاس من جراء هذه التكنولوجيا، ستصبح حياتنا معها أكثر مرونةً، وربما أكثر إنتاجية، وسيغدو تواصلنا أيسر. لن يكون شيئًا مستحيلا، فبكبسة زرّ على إحدى زوايا هاتفك أو حاسوبك وتجد نفسك في متاهة عالم افتراضي بل واقعي جديد وفق أبعاد متعدّدة من: صور ( *imaging* ) تموقع (*positioning*) تراسل (*messaging*) تجارة الكترونية (*e-com*) تصفح انترنت (*web browsing*)، بث مباشر (*calling video*) الاجتماع عن بعد ( *videoconference*)، وكل ذلك يحدث عبر الهاتف! أي هاتف؟ بالطّبع المحمول فما هو مآل هذا الهاتف على الأرض بين النّاس بالأثر والفعل والخدمة.

ربّ قائل بأنّ عالم الهواتف بحدّ ذاته ليس بجديد، غير أنّ الجيل الأوّل الذي كان يستخدم تقنية الاتّصال الهاتفيّ المحمول كان قادرًا على الجمع بين القدرة على الاتّصال والتّنقل من مكان الى آخر، ولكن مع دخول "التّقنيّة الرّقميّة" وإنتاج أجهزة أصغر وبكلفة أقل على المستهلكين، وجمع الصّوت والصّورة المتحرّكة والنّصوص معًا، واستحداث الدّمج المباشر مع الانترنت والخدمات المتلفزة على شاشة الجهاز الواحد، يدفعنا إلى التّوقّف عند مآثره المتنامية سيما وأنّه لا يمكن التنبؤ بالآفاق التي سيرتادها الجيل الرّابع والأجيال اللاحقة من الهواتف المحمولة ليس فقط على صعيد تطوّره التّقنيّ وإنّما على صعيد مآثره الاجتماعيّة والعمليّة والأسريّة. كما نظرّ إلى ذلك بعض الباحثين أمثال السّوسيولوجيّ البريطانيّ انتوني غدنز– وعند حديثه عن وسائط الاعلام والمجتمع الحديث– بالقول: "إنّ الهاتف النّقال أداة مدهشة للتّحرّر

الشّخصيّ... ولا مراء في أنّ الهاتف الجوّال يمثل واحدًا من الموارد المهمّة للتّواصل البشريّ في عالم ديناميّ متغيّر لمئات الملايين من النّاس الذين تكتظ ساعاتهم وأيامهم بالمشاغل والاهتمامات، إذ يمكنهم إدارة أعمالهم وأنشطتهم بصورة أكثر كفاءة، ويمكن للأهل أيضًا أن يظلّوا على اتّصال دائم مع أبنائهم وبناتهم وأفراد العائلة الآخرين" (غدنز، 2005) بفعل التّقدم الهائل بتكنولوجيا الاتّصال، الذي فضلًا عن تقريبه المسافات واختصاره الزّمن، أوجد مناخًا اجتماعيًا مفتوحًا عندما أزال موانع الالتقاء والتفاعل، فلم يعد ثمة عزلة حتى عند أبناء الجماعات والأسر والأقارب. فالمهاجر اللبنانيّ إلى مونتريال أو سيدني أو المقيم في باريس بات يطمئن عن أخبار الأهل يومًا بيوم، وحتى ولو لم يكن موجودًا عبر أكثر من وسيلة (المجيب الآلي أو عبر البثّ المباشر من الهواتف الذّكيّة وتطبيقاتها)، لم يعد المرء ينقطع كما في السّابق فعليًّا عن أقاربه وأصحابه وأعماله، وكأنّ الهجرة لم تعد غربة لأنّ المسافات لم تعد بعيدة بفعل وسائل التّواصل المتاحة، إذ أصبح أي واحد منّا لا يتابع أخبار بلده وحسب، وإنّما أخبار قريته ومناسبات أقربائه. مما يعني أنّ ثمة جماعات أقامت أوطانها على شبكة الانترنت، بحيث أصبح بمقدورها أن تتواصل فيما بينها مهما تباعدت مهاجرها من خلال جهاز الكتروني بسيط وذكي.

وعليه نتساءل: أي دور يؤدّيه الهاتف الخليويّ في التّواصل البشريّ في ظلّ عالم ديناميّ متغيّر عند مئات الملايين من النّاس؟ هل يسهم فعليًّا في تنظيم أعمال النّاس بصورة أكثر كفاءة واستطاع الكثير منهم الوفاء باحتياجاتهم الشّخصيّة والمهنيّة بصورة أكثر فعاليّة عبره؟ يبدو ذلك ويتّضح أكثر وأكثر في ظلّ الأزمات، كما هو الحال مع الأزمّة التي خلفتها جائحة كورونا.

**التّواصل في عالم متغيّر :**

تُظهر المعطيات السّوسيولوجيّة أنّ علاقتنا بالوجود الشّامل تمرّ بواسطة أشياء محسوسة، في ظلّ هذا العالم المتغير تكنولوجيّا وفكريّا واجتماعيّا وسياسيّا واقتصاديًا لم تعد وسائل أعلامك محصورة وكما كانت من قبل، بل توسّعت وامتدت حتى ربت أنواعها على العشرات وطالت بتأثيرها جميع الاجيال، ووسمت هذا العصر باسمها من دون منازع، إذ أصبح القرن الواحد والعشرون قرن التكنو– ثقافي بامتياز (دوبريه،1996)، انتقلنا فيه – معرفيًّا– من وعي اجتماعيّ وفكريّ محدود إلى وعي شامل غير مضبوط الآفاق، يعيش فيه النّاس عالمًا يعدّ من أفضل العوالم: لا عرق، لا مشقات تنقل بل بكبسة زرّ يعبّر أحدهم إلى حيث الحياة ولو إسقاطيّة/ هواميّة، إلى حيث الحقيقة ولو كانت افتراضيّة. إنّ إقامة هذا الاتّصال الافتراضيّ الذي ينحو إلى حدّ ما في أن يصبح واقعًا، أخذ يسمح باستشراف رؤية جديدة في السّياسة والاقتصاد والاجتماع لأنّ البشريّة هي اليوم فعلًا بصدد حالة إنسانيّة مغايرة، مع توطّد الفضاء المعلوماتيّ والتّفاعلات الاجتماعيّة أو المعرفيّة الحاصلة من جرائه بفعل عاملين اثنين:

1- **خطابة الصّورة:** مع دخولنا الفضاء الالكترونيّ وعالم اليوتيوب أصبحنا نرى ذاتنا في عالم من الصّور صورٌ حاجزة غبّ الطّلب، سواءً عبر تصوير مقاطع الفيديو أو التقاط الصّور الفوريّة للحدث/ للمناسبة / للموقف من خلال كاميرا الهواتف الذّكيّة في جيوبنا، أصبح معها للصّورة في حضورها ولحظنتها وقوتها خطابًا يتلاعب بالعقول والمشاعر، وفي أن تكون عنصرًا أساسيًا في تشكيل شخصية الإنسان، وفي تشكيل تصوّراته عن الواقع بشكل يفوق خبراته الفعلية اليومية المعاشة. لقد توغّلت الصّورة داخل وعي الإنسان وأصبحت تؤسّس لاختيارات وتفضيلات وتحفيزات وتحيّزات، وتطلق حاجيات وتحدث رغبات. وتعلن اتجاهات، وتعبّر عن مواقف.

2- **الذّكاء الجماعيّ:** ويقصد به استخدام الإمكانات الهائلة لتكنولوجيا المعلومات في تنمية حركة ناميّة من الوعي الجماعيّ، أي العمل على بناء الاقتدار المعرفيّ إذ لم يسبق لقوّة المعرفة أن أخذت هذا الحجم في تاريخ البشريّة، أين نحن منها الآن؟ هذا ما يتحتّم علينا إنجازه "من تعلّم" معلومات ثابتة الى "تعلّم كيف نتعلم"، نتعلم ماذا؟ نتعلم المرونة الذهنية وقدرة التكيف مع التحولات المتسارعة وتحويل المعرفة الى ممارسة وهذا ما يقتضي تحويل جميع وسائل اعلامنا إلى وسائط ثقافيّة، ومن ثمّ إلى عمليات تعلّم متجددة على الدوام. (كيلش،2000)

بناءً على هذين العاملين أحدث التّواصل الالكترونيّ اليوم تحوّلات عميقة في طبيعة حياتنا وتصرفاتنا، فالمواقع الالكترونيّة المرئيّة أخذت تعيد ماهية العالم الذي نعيش فيه، ولعلّ نظرة سريعة على ما نراه من أحداث وما خبرناه من أزمات (آخرها أزمّة الوباء المستجد) يظهر كم نحن نعيش في عالم من الاتّصال الالكترونيّ ذابت فيه حياتنا بإطار من الشّاشات المرئيّة، وفق هذا العالم بات ما يؤثّر في حياتنا الاجتماعيّة هو بمعانٍ متضمنة في إشارات وصور مكثفة. حتى أصبحنا نستجيب ونتفاعل مع صور إعلامية لا مع أشخاص وأحداث وأمكنة حقيقيّة. وهذا يعني إن ثمة إمكانية في تشكيل هوية منفتحة بعناصر متطوّرة، مواكبة لإشكاليات معاصرة في أفق تشكيل الفرد الواعي بذاته المحدّد لخياراته. ولأنّ الوسائليّة تؤدّي دورًا فاعلًا وفعالًا في تعزيز النّزعة نحو الهوية المنطلقة، حيث تبدو هذه النّزعة من خلال الرّغبة في اقتناء واستخدام الأشياء التّقنيّة الجديدة والأشياء الاتّصالية الحديثة كالهاتف النّقال والكومبيوتر الشّخصيّ والدّخول في عالم التّواصل الاجتماعيّ حتى جعلت شريحة واسعة من النّاس لا تستخدمها فقط كوسائل للرّاحة والتّسلية وحسب، بل لفتح إمكانيات عملية واسعة في مجالات تتعلّق بالفكر والسّياسة والاجتماع؛ أصبحت هذه الوسائليّة بوجودها وانغماسها في حياة النّاس، في عالمهم المعاصر المتغير تيّارًا حضاريًّا جارفًا والانسان مواطنا شموليًّا– عولميًّا وليس محليًّا، بل أصبحت حياتنا وتكنولوجيا الأعلام الجديد توأم روح على النّحو الذي حدث بعلاقتنا مع الهاتف الذّكيّ في زمن الكورونا وظروف الحجر.

**الهواتف في ظلّ الحجر المنزليّ :العزلة والتّفاعل**

حتى زمن غير ببيعد كنا نتساءل ماذا إذا كان الهاتف النّقال المتقدّم في تقنيانه والسّماء المفتوحة له يمثل اختصارًا للعلاقات الاجتماعيّة(حيث الاستغناء عن الحضور الشّخصيّ للمناسبات بالرّسائل النّصيّة والصّوتيّة المرسلة عبره) او اقتحامًا للحياة الخاصة بالأفراد (حيث يسّر الوصول إليهم في أيّ مكان وفي أية لحظة) وما إذا كانت هذه الآلة المحمولة قلّصت فعليًا دائرة آمان النّاس الشّخصيّة، وبات مصدرًا للضّيق والإزعاج والابتزاز؟ قد تعكس مثل هذه التّساؤلات البعد التّأثيريّ السّلبيّ للهاتف على حياة النّاس اليومية .إلّا أنّ مقاربة هذه الطّروحات في ظلّ الأزمات التي نمر، تجعلنا نعيد النّظر في هذه الإشكاليات ليس لسبب أنّ الهاتف الجوّال لا بد منه رغم ما يحمله من مآثر أو لأنّه طريق المستقبل– على ما نحو نظّر له انتوني غدنز في كتبه علم الاجتماع– ومن لا يستخدمه هو خارج الزّمان والمكان وعالم الغد؛ بل لأهمّية ما بات يمثله بالنّسبة إلى مختلف شرائح المجتمع في ظلّ الأزمات وظروف الحياة القاسية.

إزاء ما فرضته جائحة الكورونا من حجر صحي وحظر تجوال ومكوث منزليّ أيامًا بل أشهرًا، وجد الكثيرون من المحجورين في الهاتف الذّكيّ سلوأهمّ ونافذتهم وغايتهم لإنجاز الكثير من اعمالهم عبر ما اصطلح على تسميته "الحياة عن بعد" (العمل عن بعد/ الدراسة عن بعد/ التّسوق عن بعد/ حتى الزّيارة باتت عن بعد) معه أدرك المحجورون أهمّيته وقيمة وجوده أكثر فأكثر. إذاك طرحت الهواتف الذّكيّة نفسها كتكنولوجيا متقدّمة لها مآثر فاعلة في سيرورة الحياة الآنية والوظيفية والخدماتيّة وأكثر من ذلك أدّت دورًا مهمًّا وناشطًا كوسيط تفاعليّ لتُطمِئنّ وتُطمْئن، تُعلّم وتتعلّم؛ على النّحو الذي حدث في ظروف الحجر إبان أزمّة الكورونا حيث الجميع بات يتجنّب الجميع، لا مصافحة، لا معانقة، لا تزاور، لا لقاءات مباشرة، لا مطاعم، لا مناسبات، لا دور عبادة، لا جامعات، ولا حتى أماكن عامة. وفي ظلّ التداعيات المقلقة والثّقيلة والمخيفة اكتشف الجميع كيف أنّ رؤية النّاس والزّيارات واللقاءات كانت نعمة، وكيف أصبح للقبلة معنًى، وللضّمة اشتياق مرير، وللسّلام حنين مؤجل، عندما تحجر نفسك في البيت وتقاطع أقربائك، ذويك، أولادك وتحاول أن ترأهمّ عن بعد كما لو لم ترهم من قبل إلّا من خلال "هاتف". فهذا يُعيد النّظر في علاقة الإنسان بالآلة، إلى واقع كيف أنّ التّقنيّة شئنا أم أبينا باتت تعيد تشكيل حياتنا، فحتّى وقت قريب كان يأخذ باحثون على إثر تقنيات الأعلام الجديد ووسائله في تعزيز النّزعة الفرديّة التي تتيح للأجيال الإسهام بدور أكبر في تكوين أنفسهم وبناء هويّتهم الخاصة وكيف أنّ معها أخذت وطأة التّقاليد والقيم الرّاسخة بالانحسار في إطار نظام عالميّ جديد، وبدأت الأطر الحياة التّقليديّة تتلاشى لتحلّ محلّها أنماط حياة جديدة، كأنّنا أرغمنا على التّكيّف مع أساليب حياة متغيرة على الدّوام من حولنا، ولكن مع تغيرات العالم على ما فرضته جائحة كورونا كل شئ تبدّل فأصبح هناك معادلات تفاعل جديدة قوامها:

1. تجاوز قيود العزلة فمع ساعات المكوث الطّويلة على الحاسوب الشّخصيّ أو الهاتف الذّكيّ نشطت الاتّصالات بالآخرين في الواقع الحقيقيّ، حيث لم يعد الاتّصال وجهًا لوجه ممكنًا بل ثمة نمطًا آخر من التّواصل والمحادثات والحوارات مع آخرين يعرفون بعضهم البعض فرض نفسه كحاجة.
2. كثافة الاتّصال بالمواقع الإخباريّة والتّردّد على المواقع الإعلاميّة التي تنشر الوقائع والأحداث التي تتم في بقاع كثيرة من العالم في لحظة وقوعها. فأصبح واحدنا يعرف عدد إصابات الوباء المستجد (الكورونا) في أي بقعة من العالم وليس ببلده... وما الذي يتمّ العمل عليه من علاجات ولقاحات..
3. القدرة على القيام بطرح الأفكار التي تعبّر عن رأيك، موقفك، ومناهضة غيرها من الأفكار بحيث تجد نفسك مسأهمًا في تكوين رأي عام إقليميّ أو مشاركًا في نقاش "واتس آبي" إزاء المواقف والقضايا مع أفراد في وقت معين كأنّهم في منتدى .
4. وفرة المعلومات المتعدّدة والمتنوّعة التي تتميز بالكثافة بشكل غير مسبوق، نتيجة الخصائص التي تميّزت بها تكنولوجيا الاتّصال والمعلومات، وأهمّها سعة التّخزين وسهولة الإتاحة، فالعرض والطّلب للصّور والفيديوهات والمقالات والأبحاث بات رهن عملية " search " وكبسة زرّ.
5. إمكانية استخدام وسائل الإعلام الجديد في التّعليم، ففي مجال التّعليم عن بعد حققت دول العالم تقدمًا ملموسًا للاستفادة من شبكة الانترنت في تقديم الخدمة التّعليميّة للمستويات التّعليميّة المختلفة، وانتشرت المفاهيم والاستريتيجيات الخاصة بالتّعليم التّفاعليّ، والتّعلّم من خلال الشبكات والتّعليم الافتراضي والفصول الافتراضيّة وغيرها التي تشير إلى وظيفة الحواسب وقدرة الشبكات في التّعليم.
6. تيسير التّسويق والإعلان، وخصوصًا بالنسبة للمواقع التي تحقّق نسبة أكبر في الاستخدام والدّخول عليها، وأصبحت خدمة الطّلب متاحة أمام الجميع، حتى "دكنجي الحي" وضع رقمه وتطبيقات هاتفه في الخدمة... "ما تتعذّب نحنا منجي لعندك" ،ويعدّ تحقيق هذه الوظيفة بالنّسبة إلى جمهور المتلقين دليلًا على اتّخاذ القرارات الشّرائية تجنّبًا لأيّة مخاطر في انتقال العدوى في الخارج.

إنّه إنقلاب على نموذج التّواصل القديم حيث أصبح بمقدور الفرد العادي في النّموذج الاتّصالي التّفاعليّ الجديد القدرة على تجاوز حدود الزّمان والمكان وفتح باب المشاركة في المعلومات والمعرفة مع الآخرين، لقد منح وسائل الإعلام الجديد بعدًا إنسانيًا تشاركيًا من خلال شبكات التّواصل الاجتماعيّ وتعززت أهيمتها وحضورها أكثر حينما تقيّد النّاس بما فيهم اللبنانيّون بحجر صحي وملازمّة للمنزل أبّان انتشار جائحة كورونا خلال الأشهر الستة الماضية، وما تركته من تداعيات حدّت من خروجهم وفرضت عليهم الانعزال قسرًا، فكان التّواصل الالكترونيّ منفذًا ومعبرًا بل وثورةً على العزلة المفروضة.

على الرّغم من أنّ حياة النّاس تنتظم في جماعات بشريّة تقوم فيما بين أفرادها سلسلة من التّفاعلات إلّا أنّ هناك نمطًا جديدًا من التّفاعل المستجد أحدثته الهواتف الذّكيّة في سلسلة من الارتباطات القائمة والعلاقات المباشرة من خلال تطبيقات وبرامج تسمى بال social media. التي غدت بدورها ليس فقط مجرد صفحات الكترونيّة تنشر المعلومات والأخبار والأحداث الغريبة بل عاملًا مؤثِّرا في نمط العلاقات الاجتماعيّة لما تتركه من تأثير على نمط التّفاعل وصوره، فبعدما كان– التّفاعل– محدّدًا برسالة خطيّة أو بطاقات معايدة بالمناسبات الكبيرة ومحكومًا بالزّمن والمسافة والجهد؛ أصبح اليوم مختصرًا في حضوره الآني والمباشر وفي آلية التّعاطي مع الاخرين. فلو أخذنا ما يعرف اليوم facebook و whats app تجد أن غالبية شرائح المجتمع من نساء شباب وأولاد هي من وسائلهم المفضلة في التّواصل والتّفاعل عبر الصّور والمحادثة والفيديو حتى أصبحت من دون منازع الشّبكة الاجتماعيّة الالكترونيّة والتّطبيقات التّواصليّة هي الأكثر حضورًا بين النّاس في عالم اليوم والعامل الأبرز في كسر العزلة في ظلّ الأزمات. وهكذا "لم يعد فضاؤنا الاجتماعيّ محيطه المنزل أو الحي أو القرية حيث التفاعل الوجاهي قائم ومعروف، وإنّما امتدّ نحو أشخاص وأصحاب بعيدون بما فرضته طبيعة الحياة المستجدة، لقد تسارع نبض الحياة وأصبح التّفاعل مع أجهزة ملزمًا لنتواصل فيه مع جيراننا وأصدقائنا، مما يعني أنّ التّطورات الجديدة في مجال تقنية المعلومات والاتّصالات أعطت زخمًا جديدًا لمسير التّفاعل بين النّاس ووسعت من مجالاته" (طربيه،2017).واكتشف النّاس معها "الفرص المتاحة" لعيش الحياة واستمرارها رغم مآسي الوحدة والانعزال.

**المراجع:**


1) انتوني غدنز، علم الاجتماع، ترجمة د.فايز الصياغ، مركزدراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 2005
2) ريجيس دوبريه: محاضرات في علم الاعلام العام– الميديولوجيا، ترجمة د.فؤاد شاهين ود.جورجيت الحداد، دار الطليعة، بيروت، 1996
3) فرانك كيش، ثورة الانفوميديا: الوسائط المعلوماتية كيف تغير عالمنا وحياتنا، ترجمة حسام الدين زكريا، دورية عالم المعرفة، العدد (253) المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والاداب، الكويت، كأنون الثاني، 2000.
4) مأمون طربيه، التفاعل الاجتماعيّ، رؤية نفس اجتماعيّة لمفاهيم الانتماء والتّواصل، دار النهضة العربيّة، بيروت، 2017